QIJIS
QUDUS INTERNATIONAL JOURNAL
OF ISLAMIC STUDIES

التعددية في المنظور الإسلامي

محمد أنيق إمام

مدرس في المعهد العالي لعلوم القرآن بدماك جاوى الوسطى

مقدمة :

تهدف هذه المقالة إلى تقديم معالم الرؤية الإسلامية بخصوص موضوع التعددية كمبدأ عام وأساسي للحياة الإنسانية، من خلال رسم بعض صور تجلياتها التي تدلل وتؤكد على أنها ضرورية للاجتماع البشري وللتعايش السلمي. ونعتمد في ذلك أساسا على بعض النصوص القرآنية والسنة النبوية في عرض وتحليل هذه الفكرة. فالتركيز هنا ينصرف في المقام الأول إلى التعدد الديني والثقافي باعتبار أن غيابهما أو غياب أحدهما يعد سببا من أهم الأسباب التي تؤدي إلى نمو التطرف الديني والصراع الحضاري في العالم الحالي. وبتعبير آخر تتطلع هذه المقالة إلى إلقاء الضوء على طبيعة التفاعل الحضاري والثقافي الذي ينبغي أن يسود بين الشعوب والمجتمعات والأمم من وجهة نظر إسلامي.

لقد أرسى الإسلام دعائم وقواعد ومبادئ للتعايش السلمي بين الناس جميعا .ودعا المسلمين إلى مخاطبة الناس بالحسنى يقول الله تعالى : (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) [سورة البقرة:١٧٣]، ولكن لايكون الحوار مجرد لقاءات عامة يراد بها خداع المسلمين ومناقشات جوفاء لا طائل من ورائها وبيانات رنانة تعيش في أوهامها الجماهير. فلا بد من وضع قواعد يلتزم بها المتحاورون ويعلنون إيمانهم بها على جماهيرهم ، ومن هذه القواعد :أولا، الاعتراف بالأصل الواحد للخليقة كلها كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) [سورة النساء:١]، فلا يتعالى جنس على آخر ولا بفضل شعب على شعب بسبب اللون والجنس والعقيدة أو بسبب قدراته العسكرية

والأقتصادية والعلمية والثقافية. ثانيا، الإيمان بأن الله كرم الإنسان يقول تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) [سورة الإسراء:٧٠]، فلا ينبغي أن يهان إنسان أو يذل مهما كان موطنه ولا بد أن تكف وسائل الإعلام عن الاستهزاء بثقافة أي شعب، وأن يمتنع الساسة والمفكرون عن التلميح أو التصريح بدونية ثقافة غيرهم أو باستعلاء ثقافتهم على غيرها من ثقافات الأمم. ثالثا، احترام خصوصية كل شعب يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [سورة الحجرات :١٣]، فالاتصال الثقافي يجب أن يقوم على أساس تبادل المعلومات والخبرات لا بقصد هيمنة ثقافة على أخرى أو فرض تقاليد شعب على آخر. رابعا، الاعتراف بالآخر ، يقول الله تعالى : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [سورة الكافرون:٢-٥]، فكما يعترف الإسلام بالعقائد الأخرى كدين وإن لم تكن سماوية وتختلف مع الإسلام اختلافا جذريا في العقائد والأحكام فينبغى على الآخرين أن يعترفوا بالإسلام كدين وإن لم يومنوابه، لأن الاعتراف بالآخر يشعره بأنه متاكافئ في الحوار مع من يحاوره. خامسا، حربة العقيدة يقول الله تعالى: (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) [سورة البقرة:٢٥٦] فلا يجوز لأحد أن يفرض عقيدته على الآخرين بالقوة، بل يترك الأمر للناس يعتنقون ما يرونه صحيحا دون ضغط من أي نوع. سادسا، العدل، فيقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا) [سورة النساء:٣٥]، ومن مقتضيات العدل حق كل شعب في أن يعيش في وطنه دون اعتداء عليه من أي نوع أو محاولة للسيطرة على مقاليد أموره. سابعا، حرية التعبير لأن التقييد في هذا المجال يزيد الأمور غموضا فلا يعرف ما يكنه البعض للآخر، وبذلك تنمو الدسائس والفتن. ثمانيا، المساواة ، فلا فضل لأحد على آخر ، وذلك يقتض الاعتراف بحق كل شعب في الموارد الطبيعية في أرضه، فلا استغلال فلا احتكار وإنما تعاون بين الناس على تنمية الموارد بحيث ينال كل ما يضمن له حياة كريمة تليق بالإنسان الذي كرمه الله.

إن الاختلاف يعد أمرا طبيعيا في نظر الإسلام فهو من سنن الله تعالى في الكون والمخلوقات فالكون كله قائم على التعدد والاختلاف في الأنواع والصور والألوان قال تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [سورة فاطر:٢٧]

وهكذا فإن هذا الاختلاف هو اختلاف تنوع وتعدد وهو أيضا من آيات الله التى تدل على عظمته وحكمته قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ

وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) [سورة الروم:٢٢] وقال أيضا: مختلفين، ولهذا فإن الاختلاف سنة إلهية لا محيد عنها وهو أمر واقع بمشيئة الله قال تعالى : سنة الله .

ولقد أقر الإسلام بالإختلاف في الحدود المنطقية والمعقولية ولعل موقف الرسول صلى الله عليه وسلم في قضية صلاة العصر في بني قريظة لخبر دليل على الإقرار بمشروعية الاختلاف في السنة النبوية . كما أن هناك وقائع وقضايا متعددة و مختلفة حدثت على مر العصور بل وحتى في عهد الرسول.

الإنسان في التصور الإسلامي قمة الكائنات الحية التى تعيش على وجه الأرض وأفضلها وأكرمها لما أودعه الله فيه من مزايا وميزه من صفات وخصائص. ولا بد أن ندرك أن الثقافات العالمية بدأت تتلاقى نتيجة ثورة وسائل الاتصال والانتقال، فالجهل المتبادل بالآخر على مستوى العالم لم يعد قائما. كما أن الحواجز بين الشعوب والثقافات سقطت وصار الناس في أجزء مختلفة من العالم يتعرفون على بعضهم فيكتشفون أوجه الاختلاف والاتفاق . كذلك هناك الإحساس المتبادل بين المجتمعات الإنسانية بوجود أخطار مشتركة على العالم كله تتجاوز حدود الثقافات والعقائد الدينية والقوميات مثل العنف في العالم ونفاد الموارد خصوصا المياه وتدمير البيئة نتيجة الإسراف في التصنيع[١].

كما هو معلوم عند كثير من الناس أن الاختلاف يعد من أبرز خصائص الوجود الإنساني ومن أوكد ضرورات الاجتماع البشري ، فالاختلاف سنة من السنن الكونية، هذا الكون الرحب الفسيح بهذا الاختلاف يفضي إلى التنوع والتناغم والتناسق، ويُذْهِبُ الرتابةَ والفتور. وهذا من شأنه أن يجعل للحياة طعما ومذاقا خاصا، فالاختلاف والتنوع يثريان الحياة، ويكسبان المرء خبرة حيث حل وحيثما ارتحل، فلو أن الناس جميعا خلقوا وجبلوا على صورة واحدة، والأماكن كلها كانت على صورة واحدة من حيث طبيعة المكان والمناخ وغير ذلك، لما احتاج الإنسان أن ينتقل من مكانه الذي ولد فيه، ولسئم العيش من أول سنوات إدراكه لمعنى الحياة لأنه لا يجد جديدا. ويرى البعض أن أهمية الاختلاف لا تتأتى فقط من كون التنوع هو أصل الاجتماع البشري، بل لأنه أيضا مما تدعو إليه الفطرة وتقتضي به الطبيعة. وما الاختلاف في واقع الأمر إلا ظاهرة من ظواهر الوجود أودعت في الكائنات عموما وفي الإنسان خصوصا.

فمن وجهة نظر الإسلام، لولا سنة الاختلاف التي هي سبب من أسباب الخلق، لاستحالت الحياة. وفي غياب الاختلاف لا يمكن أن يكون الإنسان، من المنظور الإسلامي، ذلك المخلوق الذي سوّاه الرب ونفخ فيه من روحه، ثم منحه العقل، وعلّمه البيان، وفضله على كثير من المخلوقات، واستخلفه في الأرض، وسخّر له ما في الكون جميعا، ثم هيّأ له مبادئ الروابط

[١] الاتجاه إلى حوار إسلامي غربي أحمد كمال أبو المجد جريدة الحياة ٢١ مارس ١٩٩٧ ص ١٨.

السامية التي تمكنه من الترفع عن كل دنيئة، وتدعوه إلى التعاون مع نظيره في الخلق، في عمارة الكون وتدبير المصالح وتبادل المنافع. لقد امتن الله على عباده من خلال كتابه العزيز أن جعل من آياته تعاقب الليل والنهار حتى لا يشعر الإنسان بالملل، ويتسنى له أن يجعل لكل وقت ما يناسبه من الأعمال: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [سورة القصص: ٧١-٧٣]

انطلاقا من النصوص القرآنية التي حفلت بالآيات الواردة فيها لفظ (الاختلاف) يمكن أن نستنبط بأن التصور الإسلامي للوجود يرتكز على فكرتين أساسيتين : فكرة وحدانية الخالق وفكرة تعددية الخلق واختلاف المخلو. وعلى هذين المحورين دار الإسلام في تصوره وعقيدته وفكرته عن هذا الوجود. فبالنسبة للمسلمين فإن الله وحده هو الواحد، وكل ما بعده متعدد: هو واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله، هو الخالق وحده والمحيي والمميت وحده وهو المعبود وحده، لا يستحق العبادة غيره ولا الاستعانة بمن سواه، (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [سورة:الفاتحة: ٥]، (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [سورة:الإخلاص: ١-٥] وعلى هذا كان التوحيد في الإسلام بمثابة جوهر هذا الدين وأساسه المتين.

فالتوحيد إذن هو روح الوجود الإسلامي (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) [سورة: آل عمران:٤٦]، وهذه كانت دعوة الأنبياء والمرسلين جميعاً، كل الرسل دعوا قومهم كما جاء في معرض آيات القرآن إلى التوحيد: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [سورة:النحل:٣٦]، والطاغوت كل ما يعبد ويعظم ويطاع طاعة مطلقة من دون الله سواء كان من البشر أم من غير البشر. فالهدف من بعثة الأنبياء هو تحرير البشرية من عبادة غير الله، من عبادة الأشياء أو عبادة الذوات أو عبادة الأشخاص أو عبادة الأفلاك أو عبادة الحيوان أو عبادة الإنسان أو عبادة الهوى والذات.

تحرير البشر من العبودية لغير الله كان رسالة الأنبياء جميعاً التي تركزت وتجسدت في الدين الخاتم الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم ليحرر الناس من عبادة الطواغيت حتى يعيشوا أحراراً متساوين فلا يمكن للناس أن ينعموا بظلال الحرية وبنسيمها إذا كان بعضهم يعبد بعضاً أو يذل بعضهم لبعض. هذا ما يمكن استخلاصه من النصوص الإسلامية فيما يتعلق بالاختلاف. وأما ما يتعلق بالتعددية في الخلق، والتعددية في العرق واللغة والدين

والثقافية، كل هذه التعدديات قد أقرها الإسلام. المسلم ليس وحده في هذا الوجود، هناك آخرون يشاركونه في الحياة. إذن فثمة تعدد في الخلق.

التعددية في العرق:

لا شك أن هناك تعدداً في العروق والأجناس والعناصر، يقول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [سورة الحجرات :١٣]خلقناكم من ذكر وأنثى، أي كلكم أولاد رجل وامرأة: آدم وحواء. (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ) : هذا الشعب العربي وهذا الشعب الهندي وهذا الشعب التركي وهذا الشعب الايطالي وهذا الشعب الإندونيسي، شعوب وقبائل لتعارفوا، أي لتتفاهموا، لتتعاونوا، لا لتتناكروا ولا لتتصادموا ولا لتتعادوا. هكذا خلق الله البشر عروقاً وأجناساً، كلها تنتهي لأب واحد وأم واحدة وتنتمي لرب واحد هو الذي خلقها وسواها -من أسماء الله وصفاته المذكورة في القرآن: اسم الواسع- ثم هذا ما أقره النبي محمد صلى الله عليه وسلم للألوف المؤلفة من المسلمين في حجة الوداع حينما قال : يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد إلا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى أبلغت قالوا بلغ رسول الله صلى الله عليه و سلم ثم قال أي يوم هذا قالوا يوم حرام ثم قال أي شهر هذا قالوا شهر حرام قال ثم قال أي بلد هذا قالوا بلد حرام قال فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم قال ولا أدري قال أو أعراضكم أم لا كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا أبلغت قالوا بلغ رسول الله صلى الله عليه و سلم قال ليبلغ الشاهد الغائب[٢].

إذن فالأجناس كلها متساوية من وجهة نظر الإسلام، ويجب أن يسعى بعضها بعضاً لإقامة المساواة، فلا يحاول جنس أن يسيطر على جنس فضلاً عن أن يبيد جنساً آخر.

التعددية في اللغة:

التعددية في اللسان واللغة من الحقائق الكبرى التى أقرها الإسلام ، فالله خلق الناس باختلاف ألسنتهم ولغاتهم. القرآن يقول (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) [سورة الروم:٢٢]، هذا يتكلم بالعربية وهذا يتكلم بالفارسية وهذا يتكلم بالهندية، وهذا يتكلم بالعبرية، لا بل قد تختلف اللغة الواحدة

[٢] أخرجه أحمد في المسند ٥ / ٤١١.

فتنقسم بدورها إلى عدة لهجات.

يتكلم الناس بلغاتهم، (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) [سورة إبراهيم:٤]، حتى الرسالة العالمية رسالة الإسلام ورسالة القرآن (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [سورة الأنبياء:١٠٧]، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ) [سورة سبأ:٢٨]، جاءت بلسان عربي مبين، فكيف يقع تبليغها في ما بعد إلى العالم؟ بالترجمة: أي تترجم إلى لغات يستعملها الآخرون حتى يعرفوها، فحوار الحضارات والثقافات والتفاعل في ما بينها يمكن الإنسان من تعلم لغة غيره وتعليم غيره لغته، ومن ثم لابد أن نعترف بأن هناك لغات شتى وألسنة مختلفة يتحدث الناس بها ويتخاطبون ويتفاعلون من خلالها.

التعددية في الثقافة:

يعتبر التنوع ظاهرة كونية، فهو يشمل مختلف جوانب الحياة: الإنساني والحيواني والطبيعي الجغرافي. (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [سورة فاطر:٢٧]

يتضح من خلال هذه الآية القرآنية أن الإنسان كلما كان واعيا بحقيقة الاختلاف، باحثا في الكون مكتشفا لأسراره، كلما اتسعت دائرة علمه ومعارفه. والعلماء هم الأكثر تأهيلا، لا لخشية الله فحسب، بل وأيضا لمعرفة واكتشاف حقائق الكون وتنوعه، فهم يعرفون بأبحاثهم ومعاينتهم وتجاربهم واكتشافاتهم وخشيتهم لخالقهم أيضا اختلاف الألوان. والتنوع يعبر عنه القرآن باختلاف الألوان، أي اختلاف الأنواع والأصناف.

ثم من شأن هذا الاختلاف الطبيعي الجغرافي والحيواني والإنساني أن يثري الحياة الإنسانية على كل أصعدة مستوياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. بهذا، ومع إقراره بالتعددية العرقية واللسانية واللغوية، يعترف المنظور الإسلامي كذلك بالتعددية الثقافية. ما دام الناس يتعددون في أعراقهم ولغاتهم وألسنتهم ويتعاملون ويتفاعلون بأساليب مختلفة مع كائنات متعددة الألوان فلابد أن يتعددوا في ثقافاتهم، والمراد بالناحية الثقافية ما يتصل بالحياة ومفاهيمها ونظمها وتقاليدها ومعارفها وتقنياتها وعادات الناس فيها. فالناس يختلفون في أمور شتى: في ملابسهم ومآكلهم ومشاربهم ومساكنهم...

لكل جماعة إنسانية طريقة- وربما طرائق- اتخذتها ومنهج اتبعته في تفاعلها مع محيطها وبيئتها، (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) [سورة المائدة :٤٨]، ولذلك قدر الإسلام هذه

الاختلافات في ثقافات الناس، ووسع هؤلاء جميعاً. فالناس أحرار في ثقافاتهم وتقاليدهم وأعرافهم وعاداتهم.

ويرى البعض أن الحضارة الإسلامية مثلا، شاركت فيها أنواع عديدة من العناصر والأجناس والأديان المختلفة، وساهمت في إثرائها ثقافات متعددة، فكل بثقافته شارك في تشييدها وازدهارها وكل ترك له بصمة في ناحية من النواحي الحياتية فيها.

هذا التعدد في الإسهامات الثقافية من شأنه أن يغني حضارة ما من الحضارات ويعززها وينميها، وعلى النقيض من ذلك، الحضارة التي تقوم على لون واحد أو شكل واحد أو صورة واحدة فهذه تعد حضارة فقيرة.. الحضارة الغنية هي التي تأخذ وتستفيد من الجميع وتقتبس من الكل. هذا ما يعبر عنه بالتنوع أو التعدد الثقافي الثري. * التعددية الدينية:

مع التعددية العرقية واللسانية اللغوية والثقافية عموما، نجد أن هناك في الإسلام تعددية دينية، هذه التعددية الدينية مرتبطة بالتعددية الثقافية -التعدد الثقافي ينجم عنه تعدد ديني- ما دام الناس يتعددون ثقافيا فلابد أن يتعددوا دينياً. خلق الله الناس مختلفين، خلق لكل منهم عقلاً يفكر به، ومنحه إرادة يرجّح بها، ومنحه ملكات وقوى ومواهب مختلفة على أساسها يختار الناس لأنفسهم ما يريدونه. لو شاء الله أن يجعل الناس كلهم مؤمنين به لفطرهم على التوحيد والإيمان كما فطر الملائكة، ولكن الله خلق من خلقه خلقاً مفطورين على عبادته (لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [سورة التحريم:٦]، (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ) [سورة الأنبياء:٢٠]، هؤلاء هم الملائكة، وخلق من خلقه نوعاً ميزه بالإرادة وبالاختيار، هو الذي يقرر مصيره بنفسه ولنفسه (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) [سورة يونس:١٠٨]، (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) [سورة الجاثية:١٥]، (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) [سورة الكهف:٢٩]، أعطاه المشيئة والإرادة والاختيار والقدرة ليقرر مصيره ويسلك طريقه، هذا النوع هو الإنسان.

لم يشأ الله أن يجبره على دين واحد ولا على الإيمان به، بل ترك له الحرية قي هذه القضية، وأعطاه الأدوات التي يفكر بها وبعث له الرسل وأنزل له الكتب لتعاونه وتساعده على اختيار الطريق الذي يريده أن يسلكه، ولكن ترك له الخيرة. هكذا خلق الله (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) [سورة هود:١١٨-١١٩]، (لذلك) أي وللاختلاف خلقهم، لأنه خلقهم متغايرين في الفكر والإرادة فلابد أن يتغايروا في الدين الذي يختارونه، (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) [سورةيونس:٩٩]، لا يكره الناس على دين ما أو على عقيدة معينة. نوح عليه السلام، على سبيل الذكر لا الحصر، قال لقومه (أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا

كَارِهُونَ) [سورة هود:٢٨]، أنلزمكم بالهداية ؟ لا بل أنتم أحرار في هذا المجال.

التعددية في الدين :

قد يظن بعض الناس أنه ليس هناك دين غير الإسلام، لا، بل هناك أديان أخرى، والواقع يؤكد هذا المعنى، فأهل الكتاب مثلا لهم دينهم، (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ) [سورة النساء:١٧١]، هذه الأديان الأخرى وسعها الإسلام، وعاشت في ظلاله قروناً والمسلمون آنذاك بفتوحاتهم وتوسعاتهم كانوا في مرحلة قوة وكانوا هم قادة العالم ولهم القوة الأولى في الدنيا، كانوا يستطيعون أن يفرضوا على الناس دينهم فرضا ويكرهونهم على الإسلام كرها، لم يحدث ذلك أبداً ، وإن حدث فالفعل مردود على فاعله، لأن الإسلام لا يقبل إيماناً فيه شبهة إكراه، لابد للإيمان أن يكون اختياراً محضاً، ولذلك لم يجبر غير المسلمين في وقت من الأوقات على دخول هذا الدين، وهذا ما قرره بعض المستشرقين الغربيين أنفسهم مثل توماس أرنولد ٣ بقوله: «لم يحدث في تاريخ المسلمين أن جماعة أجبرت على أن تدخل في الإسلام إكراه»، تركوا هؤلاء وعاشوا في بلاد المسلمين أهل ذمة لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، لهم كنائسهم ولهم بيعهم ولهم نواقيسهم ولهم أزياؤهم...، ما أجبر أحد على أن يغير زيه ليكون مثل المسلمين، بل بالعكس، ما دام الإسلام قد تركه لدينه وضمن له حرية الاعتقاد فمن حقه أن يعيش بدينه وأن يقيم شعائره وأن يؤدي واجباته وأن يرعى حقوقه، وهذا من ثمرات إقرار التعدد واحترام مبدأ التسامح.

إن التعددية الدينية تحتاج إلى التسامح، وقد يتساءل البعض: كيف يتسامح الإنسان وهو يعتقد أن دينه هو الحق وأن دين غيره هو الباطل؟ وإذا كان يعتقد هذا كيف يتسامح مع غيره ؟ لعل الإجابة تكمن في أن هذا الأمر يعد من روائع ما جاء به الدين الحنيف، أنه برغم اعتزاز معتنقه بإسلامه (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [سورة فصلت:٣٣]، رغم اعتزازه بالإسلام ومباهاته بالإسلام ومغالاته بالاعتزاز بهذا الدين فإنه قد غرس فيه من العقائد والمفاهيم والأفكار ما يجعله يتعايش بتسامح منقطع النظير مع المخالفين له.

من هذه المفاهيم والأفكار الأساسية أنه بين أن اختلاف الناس واقع بمشيئة وإرادة الله الخالق، الله هو الذي أراد الناس كذلك (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) [سورة التغابن:٢]، هكذا خلق الله الناس وأن هذا واقع بمشيئته، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة،

[٣] توماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، نقله إلى العربية د. حسن إبراهيم حسن وزميلا، ١٤ .

وما دام هذا بمشيئة الله التي لا تنفصل عن حكمته - من أسماء الله وصفاته المذكورة في القرآن: اسم الحكيم - فمن العبث أن يقاوم الإنسان مشيئة الله، لأن مشيئة خالقه وبارئه هي النافذة وهي الغالبة وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. إن الإسلام يكرم الإنسان من حيث هو إنسان، الإنسان من حيث آدميته مكرم في الدين الإسلامي، (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) [سورة الإسراء:٧٠]، الله أوجد الإنسان وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة وجعله في الأرض خليفة، فبذلك يصير الإنسان هو محور هذا الوجود، كرمه الله بغض النظر عن لون بشرته أو شعره أو عينيه، بل بغض النظر عن دينه أي دين هو معتنقه. جاء في الحديث الصحيح أن أناسا مروا بجنازة إنسان ميت فقام لها النبي صلى الله عليه وسلم واقفا، فقالوا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي، هل تقوم احتراماً لها؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم :أليست نفسا؟ [٤]. فما أروع الموقف وما أروع التعليم، النفس البشرية تكرّم لأنها نفس بقطع النظر عن دينها. وهكذا، النفس الإنسانية مكرمة معصومة مصونة، (أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) [سورة المائدة:٣٢] هذا هو الأمر الثاني الذي يعالج به الإسلام التعصب ويسعى لمحوه من نفسية الفرد ليغرس فيها التسامح والأفق الواسع. إن الإسلام يأمر بالعدل - من أسماء الله وصفاته المذكورة في القرآن: اسم العدل - مع الناس جميعاً، لا وبل مع كل الكائنات وفي كل حالة وهيئة: مع المحب أو غير المحب، مع القريب أو البعيد، مع الصديق أو العدو، مع المسالم أو المحارب، مع المسلم أو غير المسلم، فالعدل للناس جميعاً بدون استثناء، ولذلك تجد القرآن يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ) [سورة النساء:١٣٥] ، هذا عدل مع المحب أو القريب، ويقول في آية أخرى في شأن البغيض أو البعيد (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا) ،[سورة المائدة :٨] –لا يحملنكم شنآنهم أي شدة بغضهم لكم أو شدة بغضكم لهم، لا يحملنكم هذا على ألا تعدلوا– (اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ) [سورة المائدة:٨]، لأن العدل مع الجميع وللجميع، وبهذا يغرس الإسلام روح التسامح مع المخالفين، بلا حيف ولا تضييق، يعاملهم بالعدل ويعاملهم بالرحمة ويعاملهم بالقسطاس المستقيم، بما أن الأرض تسع الجميع.

الإسلام دين التسامح :

خلق الله الناس على أديان مختلفة ويجب أن يسع أهل الأديان بعضهم بعضاً. لا يجبر

[٤] أخرجه مسلم في الصحيح كتاب الجنائز باب القيام للجنازة، حديث رقم:٢٢٦٩.

أناس على أن يتركوا دينهم ليعتنقوا ديناً آخر، لم يأت الإسلام بهذا، لأنه (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) [سورة البقرة:٢٥٦]، ولذلك يحث الإسلام المسلم أن يسع المخالفين، لا أن يقهرهم على أن يتبعوا دينا واحدا، سواء كان ذلك الدين دينه هو أو دين غيره. كما لا يسمح الإسلام لأحد أن يقهر معتنقيه على ترك دينهم أو أن يمنعهم من طاعة ربهم. هذه التعددية الدينية هي التي قررها الإسلام منذ العهد المكي وفي العهد المدني أيضا.

نجد أن هناك سورة في القرآن جمعت بين أمرين قد يظنهما بعض الناس متناقضين، الاعتزاز بالدين إلى أقصى حد والتسامح مع المخالف إلى أقصى حد، هذه السورة هي سورة الكافرون. السورة الوحيدة التي خاطب الله فيها غير المسلمين في حياتهم الدنيا بعنوان الكافرين، فمن عادة القرآن أن يخاطب غير المسلم دائماً بـ (يا أيها الناس، يا بني آدم، يا عبادي، يا أهل الكتاب...) لكن ورد في هذه السورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) [سورة الكافرون:١-٢]. ويعود سبب نزولها لقصة مساومة المشركين للنبي محمد صلى الله عليه وسلم. كانوا يساومون النبي ويفاوضونه على أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، وهذه المساومات أراد القرآن أن يقطعها بقرار حاسم واضح جلي، ولذلك قال (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [سورة الكافرون:٢-٥] هذا التكرار والتأكيد يتبعه في نهاية السورة هذا التسامح العجيب (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ).

ولا يخفى على باحث أن ابتعاث رسول الله كان منعطفا تاريخيا في حياة الناس جميعا وتحولا حضاريا متميزا في نهج حياتهم وتعاملهم. تحول الخطاب فيه من قومية الأديان ومحدودية مقاصدها إلى عالمية الإسلام وشمولية دعوته وتكامل مقاصده ومن عزلة المجتمعات البشرية وتضادها وتصارعها إلى وحدة الأسرة البشرية وتعاون مجتمعاتها. حيث سمع الناس لأول مرة في تاريخهم الإنساني فكرة المجتمع الإنساني الواحد كما سمعوا أيضا لأول مرة فكرة التعايش السلمي بينهم من غير تمايز بينهم على اختلاف أقوامهم وأجناسهم وأعراقهم وأديانهم وأوطانهم.[٥] وكان النبي يعمل على نشر الإخاء الإنساني الذي يتجاوز المسلمين إلى غير المسلمين، لذا نجد الرسول يعقد مع اليهود حلفا أساسه التعاون على الخير وحماية الفضيلة ودفع الأذى وحماية المدينة من كل اعتداء ومنع الظلم وردع المجرمين العابثين بالأمن وأكد النبي ذلك بالمواثيق.

ففي دستور دولة النبوة –الدولة الإسلامية الأولى التي قامت بالمدينة المنورة عقب هجرة الرسل سنة ١ هـ - ٦٢٢ م نجد مواد هذا الدستور الذي اشتهر في مصادر التاريخ

[٥] الإسلام والمسيحية، إيليكس جورافسكي ، ص ٨١ عالم المعرفة الكويت ١٩٩٦.

الإسلامي بالصحيفة والكتاب. نجد مواد هذا الدستور تبلغ سبعا وأربعين مادة، وفي هذه المواد تقنين لدمج الفئات المجتمعية في رعية الدولة واعتبارهم أمة مع المؤمنين- المهاجرين والأنصار- وتقنين المساواة بينهم وبين المؤمنين في الحقوق والواجبات مع تقنين حقهم الكامل في الاعتقاد الديني الذي يختلفون فيه مع الإسلام والمسلمين . ونقرأ في هذه المواد الدستورية أرقى صور التقنين للاعتراف بالآخر ومساواة الأقلية للأغلبية وتقرير التعددية الدينية في رعية الدولة الواحدة٦.

نص هذا الدستور على أن اليهود أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلين دينهم ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم وأن بطانة اليهود ومواليهم كأنفسهم. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين مادامو محاربين، على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحصن من أهل هذه الصحيفة دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وهكذا تجسد التحام الآخر اليهودي في الأمة الواحدة والرعية المتحدة للدولة في ظل المرجعية الإسلامية ومن خلال سعتها التى نص عليها هذا الدستور عندما قال : وإنه ماكان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو استجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله .

وتجسد هذا الالتحام أيضا بالآخر وتحققت هذه المساواة في العلاقات التى أدخلت النصارى -نصارى نجران- وكل المتدينين بالنصرانية في صلب الأمة الواحدة. فنص ميثاق العهد الذى كتبه الرسول لنصارى نجران على مجموعة من المبادئ الدستورية التي وضعت مبادئ وفلسفات علاقة الإسلام بالآخر في الممارسة والتطبيق فجاء في هذا الميثاق : ولنجران وحاشيتها ولأهل ملتها ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية جوار الله وذمة محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير... أن أحمي جانبهم وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم.

واهتماما من الإسلام في توفير عوامل التلاحم للأمة الواحدة التى جعل الإسلام وحدتها فريضة نص عليها القرآن الكريم (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) [سورة الأنبياء:٩٢]، فلقد حققت التطبيقات الإسلامية في الواقع الاجتماعي عددا من الإنجازات التي سلكت الجميع في الأمة الواحدة. فالموالي الذين كانوا أرقاء ثم حررهم الإسلام دمجهم النظام الإسلامي في قبائلهم التي كانوا أرقاء فيها ولحمهم فيها بلحة الولاء. وسلكت التطبيقات الإسلامية باب المصاهرة والزواج بين المسلمين وبين الكتابيات المحصنات لتحقيق أعلى درجات

[٦] مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله الحيدر آبادي، ١٧-٢١ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦.

التلاحم بين غير المسلمين وبين المسلمين في بناء الأمة الواحدة.

والإسلام لا يكتفي بمحو أسباب التفرق والنزاع بين الناس بل يدعو إلى التسامح العام لأن التسامح يداوى القلوب المكلومة ويجتذب النفوس النافرة. فالإسلام منهج الناس جميعا ومقاصده لخيرهم وفلاحهم وخطابه لهم على اختلاف أقوامهم وأجناسهم وأديانهم. فهو تحول حضاري شامل ينتقل بالناس من ضيق القوميات والأعراق والأجناس إلى سعة الأسرة البشرية وتعاوم مجتعاتها في إطار منهجية المجتمع الإنساني الواحد وفي إطار منهج التعاون بين الناس جميعا على أساس من قيم ربهم.

ومما لا يخفى أن الإسلام قدم نظرة شاملة ورؤية متكاملة للكون والحياة والإنسان وأن هذه النظرة تبقى أساسية وصالحة للبشر في كل زمان ومكان. وهذه الرؤية تشمل الأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع، ومن هذه المنطلقات قامت الحضارة الإسلامية على مبدأين مهمين والتغيير والاستشراف. ومما يدل على ذلك ما جاء في فواتح كتب الرسول إلى إمبراطور الروم وكسرى. فقد جاء في رسائل الرسول بعد المقدمة (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) [سورة: آل عمران:٦٤]. وهذه الآية الكريمة جاءت لتقرر مبادئ إسلامية في علاقات المسلمين مع كل الناس. وهي مبدأ الاعتراف بالآخرين، مبدأ الحوار وأهميته، مبدأ احترام المشيئة الذاتية لدى الآخر، مبدأ استشراف المستقبل في طل علاقات إنسانية سامية.

إن الآية القرآنية (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [سورة الحجرات :١٣] تشير في وضوح إلى أن البشرية تتألف من مجتمعات قبلية وشعوب أو أقوام. وكلمة الناس هي تعبير عن الجنس العام يشملها جميعا. وتشير الأية أيضا إلى اتجاه تطور البشرية، أسر أو قبائل وشعوب في اتجاه التعارف وهو المعرفة المتبادلة من جميع الأطراف.

إن الإسلام جاء كما يفهم من الآيات القرآنية ليقيم بين البشر جميعا رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر جميعا بالله الخالق فهم جميعا عباد الله.

لقد جعل الله اختلاف الناس شعوبا وقبائل للتعارف والتعاون لا للتباغض والتنازع. فاختلاف الشعوب له غاية أرادها الله عز وجل، وهو التعارف وهذا التعارف له ظواهر منها اللقاء على مودة وتراحم في أمن وسلام، التعاون على أن ينتفع الإنسان بكل خيرات

الأرض، تكريم الإنسان في هذه الأرض[7] إن التعارف يقود إلى التعاون البناء المستمر الذي يفيد الإنسانية جمعاء. إن منهج القرآن يعلم المسلين أن البشرية مدعوة بأمر ربها للتعارف والتعايش وفق القيم والمعايير الإسلامية على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وأديانهم وألوانهم. وأن إتيان الحق ومجانبة الباطل هو أساس التنافس بينهم هو أساس معيار القرب والبعد من تقوى الله ومرضاته.

ومن سماحة الإسلام ومرونته في التعامل مع التعددية في المجتمع أن يضمن أمن الفرد غير المسلم ولو كان مشركا. نقرأ مثلا قوله تعالى :(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) [سورة التوبة : ٦] يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: " يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، (اسْتَجَارَكَ) أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته (حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ) أي: القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئًا من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله، (ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ) أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده[8]. وأما الشيخ المراغي فيقول في تفسيره : "وإن استأمنك أيها الرسول أحد من الشركين لكي يسمع كلام الله تعالى ويعلم حقيقة ما تدعو إليه أو ليلقاك-وإن لم يذكر سببا- فأجره وأمنه على نفسه وأمواله لكي يسمع أو يراك. فإن هذه فرصة للتبليغ والاستماع، فإن اهتدى وآمن عن علم واقتناع فذاك وإلا فالواجب أن تبلغه المكان الذي يأمن فيه على نفسه ويكون حرا في عقيدته حيث لا يكون للمسلمين سلطان عليه وتعود حالة الحرب إلى ما كانت عليه من غير عذر[9].

وهكذا نفهم أن من منح الأمان لا تمتد إليه يد بالإيذاء وأنه يعان على العودة إلى مأمنه مع الوفاء له دون غدر به أو خيانه له.

وفي الحديث النبوي نجد ما يكشف أن سماحة الإسلام مع مخالفيه وأعدائه وسموه في التعامل معهم بلغ حدا يتحدى به البشرية بأسرها أن تجد له نظيرا في غير الإسلام. لقد أظهر هذا الحديث بشاعة الغدر بمن منح له الأمان بأبلغ قول و أوضح بيان. روى البخاري في التاريخ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من أمن رجلا على دمه فأنا برئ من القاتل وإن كان المقتول كافرا[10]، ففي هذا الحديث يتبرأ الرسول من المسلم إذا غدر بكافر أمنه ثم قتله.

[7] التوجه الاجتماعي في الإسلام، الشيخ أبو زهرة ٢١/٢ مجمع البحوث ١٣٩١هـ

[8] تفسير ابن كثير ١١٣/٤.

[9] تفسير المراغي، ٥٩/١٠-٦٠ .

[10] التاريخ الكبير، البخاري، ٢٢٣/٣.

وبراءة الرسول من مسلم تعني خسرانه الدنيا والآخرة.

ومن أكبر نماذج التسامح والاعتراف بالتعددية في الحضارة الإسلامية ما نقرأ في الوثيقة العمرية في فتح بيت المقدس سنة ٥١هـ أي بعد وفاة النبي بخمسة أعوام. وهذه الوثيقة لها مكانة كبرى في الحضارة الإسلامية وأنها دالة على مدى تسامح الفتوحات الإسلامية والفاتحين المسلمين. وهذا نص الوثيقة التى تكاد تجمع عليه المصادر التاريخية:

"بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الامان أعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم والصوت فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الارض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاصى وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمسة عشر"[١١].

الخاتمة:

وقفنا في هذه المقالة على بعض تجليات التعددية في المنظور الإسلامي كما تبرز من خلال النصوص القرآنية والحديثية، ولا نحسب أننا قد أتينا عليها جميعا، لكننا ركزنا على أهمها من وجهة نظرنا، فالموضوع جد طويل ويحتاج إلى كتابات عديدة وعميقة ومتأنية تقرب من تحديد معالم قضية التعدد وذلك بتوفر عنصر أساسي، ألا وهو ضرورة قراءة كل النصوص القرآنية والحديثية التي لها علاقة مباشرة وغير مباشرة بمسألة الاختلاف ومظاهره.

يمكن القول بأن المنظور الإسلامي يقر التعددية بكل صورها وألوانها ويبين للمسلمين وغير المسلمين أن الحياة تتسع للموافق والمخالف. ونستطيع أن نخلص بأن الاختلاف حقيقة

[١١] تاريخ الطبري،٣ /١٠٥.

كونية وفريضة شرعية أقرها الإسلام. فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة أيقنا أن الذين يتحدثون عن زوال هذا الاختلاف أو نفي وجوده أصلا وعن اجتماع الناس على رأي واحد غير منصوص عليه بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة، وهو الذي يمثل ثوابت الإسلام وأركانه، كلامهم يحتاج إلى نظر حيث يصعب إثباته أو تطبيقه، وهو ما لم يحدث حتى في عهد أصحاب النبي الذين اختلفوا والرسول بينهم يتنزل عليه الوحي. فالإنسان لا يمل من هذا الاختلاف سواء كان في أمور شرعية أو أمور حياتية صرفة، ما دام ذلك بعيدا عن التنازع المؤدي إلى التفرقة والشقاق والبغضاء والشحناء. بل من المهم أن يكون هذا الاختلاف منهج حياة يطبقه الزوج والزوجة في بيتهما مع أولادهما وتطبقه المؤسسات على اختلافها وتنوعها بداية من الأسرة، النواة الأولى لبناء المجتمع، وصولا إلى مؤسسة الدولة أو مجموعة الدول أو العالم بأسره، وذلك لترسيخ قيم الحوار والتسامح اللذان يعتبران من أرقى الروابط السامية للاجتماع البشري والعلاقات الإنسانية.

المراجع :

- القرآن الكريم
- صحيح مسلم، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- مسند أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة القاهرة.
- تفسير ابن كثير طبعة دار الفكر،بيروت ١٤٠١ هـ.
- تفسير المراغي، طبعة دار الفكر، دمشق.
- التاريخ الكبير، البخاري، دار الفكر، تحقيق السيد هاشم الندوي
- تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله الحيدر آبادي، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦.
- توماس آرنولد ، الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، نقله إلى العربية د. حسن إبراهيم حسن وزميلاه، طبعة القاهرة.
- الإسلام والمسيحية، إيليكس جورافسكي ، ص ١٨ عالم المعرفة الكويت ١٩٩٦،.
- التوجه الاجتماعي في الإسلام، الشيخ أبو زهرة ٢١/٢ مجمع البحوث الإسلامية القاهرة ١٣٩١هـ.
- الاتجاه إلى حوار إسلامي غربي، د.أحمد كمال أبو المجد جريدة الحياة اللندنية ٢١ مارس ١٩٩٧ص ١٨.